مجلة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
المجلد 16 العدد1 (2023): 18– 32 ISSN : 1112 -7163 E-ISSN: 2588-1892

المكان في قصيدة: زنزانة العذاب 73 لمفدي زكرياء بين التشكل والجمالية

The Place in a Poem: The Dungeon of Torment 73 by Mufdi Zakaria, Between Formality and Aesthetics

كريمة رقاب[1]، عبد السلام بقاق[2]

1- جامعة غرداية، كلية الآداب واللغات، مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي للجنوب الجزائري
reggab.karima@univ-ghardaia.dz

2- جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف، كلية الآداب والفنون، مخبر نظرية اللغة الوظيفية
a.begag84@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2023/02/19 تاريخ القبول: 2023/05/09 تاريخ النشر: 2023/06/07

ملخص:

تشي قصيدة زنزانة العذاب 73 انطلاقا من عنوانها على قسوة التجربة للشاعر الجزائري مفدي زكرياء من خلال مكوثه في سجن بربروس (سركاجي) سنة 1957م، وهي تجربة جعلته يعبر عن معاناته داخل زنزانة صغيرة وضيقة مورس عليه فيها أبشع أنواع العذاب، فأنشد هذه القصيدة واصفا فيها هذا المكان الذي أحدث في نفسه تماهيا بسبب الوحدة والعزلة فانزاح من دلالة الاحتواء إلى دلالات أخرى، وانطلاقا من هذا الطرح تهدف هذه الدراسة الموسومة بـ: المكان في قصيدة زنزانة العذاب 73 بين التشكل والجمالية" إلى الكشف عن الطريقة التي رسم بها الشاعر هذا المكان من ناحية البنائية والفنية، فكيف كان تشكل هذا المكان؟ وماهي أهم الآليات التي اعتمدها الشاعر في تشكله؟ وما هي الأساليب الفنية التي وظفها لإبراز مظاهر وتشكل هذا المكان، وفيم تجلت هذه الفنيات؟ وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج البنيوي للكشف عن طريقة انبناء هذا المكون الخطابي، وكذا بعض آليات المنهج الفني لإبراز أهم القيم الجمالية في القصيدة. كما أن الدراسة قد توصلت إلى نتائج أهمها نجاح الشاعر في إضفاء صفة الأنسنة على السجن، وجعل المكان منغلقا هندسيا منفتحا شعوريا.

كلمات دالة: مكان، تشكل، جمالية، فنية، مفدي زكرياء.

المؤلف المرسل: كريمة رقاب: begag84@gmail.com

Abstract:

The poem Cell of Torment 73 based on its title betokenss the bitterness of the experience of the Algerian poet Mufdi Zakaria during his oubliette in Barbaros jail (Sarkaji) in the year 1957 AD, an experience that made him vent his oppression inside a narrow and incommodious cell in which he was subjected to the ugliest kinds of torment, so he set forth this poem describing in that sordid place. The place that haunted him because of loneliness and isolation, so it shifted from the denotation of containment to other connotations.

Based on this proposition, this study, entitled "The place in the poem Cell of Torment 73, between morphology and aesthetics," tries to divulge the way the poet pictured this place in terms of structuralism and art. How was this place shaped? What are the most important mechanisms that the poet relied on in its description? What are the artistic technioques that he used to accentuate the shape and formation of that place, and in how were these techniques manifested?

In our study, we relied on the structural approach to reveal the method of constructing this rhetorical component, as well as some mechanisms of the artistic approach to accentuate the most important aesthetic values in the poem.

Key words: place, formation, aesthetic, artistic, Mufdi Zakaria

مقدمة:

تعد قصيدة زنزانة العذاب 73 من أدب السجون كتبها مفدي زكرياء عندما زج به في سجن بربروس في غرفة مظلمة، وقد حفظ أبياتها لاستحالة كتابتها حينها، وأدب السجون موجود منذ القديم (الصمد، 1995م، صفحة 202)، وامتد إلى العصر الحديث، أين انتشرت الحركات الاستعمارية في الوطن العربي، والتي مارست كل أنواع القمع على المناضلين والثوار، وكذلك الأنظمة الفاسدة –بعد الاستقلال– والتي سعت إلى دحر الأصوات المعارضة من المناضلين الأحرار بكل أطيافها وأجناسها ومستوياتها ودياناتها وأيديولوجياتها، ولم يسلم الشيوعي ولا الليبرالي ولا الإسلامي ولا الملحد (رضوى، 2014، صفحة 11) من بطشها داخل السجون، ومن هؤلاء السجناء نجد أدباء كانت مهمتهم الكتابة عن الواقع المعيش (سياسيا، اقتصاديا، اجتماعيا، ...) قبل السجن والكتابة عن تجربتهم القاسية بعد دخوله «فأصبح السجن هو نصهم الوحيد، سجلوا فيه» (رضوى، 2014، صفحة 11) ما عانوه

مع السجان وأيام المعتقل اللاإنسانية من برد وحر وجوع وعطش وآلام وضرب وإهانة. ومن الشعراء الجزائريين الذين كتبوا في أدب السجود الشاعر مفدي زكرياء (1908 – 1977) أين وصف تجربته مع سجن بربروس في الزنزانة رقم 73 والتي سماها "زنزانة العذاب 73"، لكن بطريقة مختلفة أدت إلى انزياح دلالي لهذا المكان البغيض الذي يزداد وحشة وسوء في الليل عند الآخرين، ويزداد جمالا، وهدوء وأُنسا وغيرهم عند مفدي زكرياء، فكيف تشكل هذا المكان في القصيدة؟ وما هي أهم القيم الجمالية فيه؟

أولا: الإطار المعرفي / تحديد المفاهيم:

1– مفهوم التشكيل:

1–1– اصطلاحا: لما كان مصطلح التشكيل مأخوذ من الجذر اللغوي [ش ك ل]، فيصبح الشكل مجموع العلاقات التي تعرف نظام العلامات في تعارض مع الجوهر، ومفهوم الشكل موروث أرسطي يعارض (المادة) ومن هذا التقسيم يقترب الشكل من مفهوم البنية (علوش، 1985م، صفحة 129) ومن خلاله تتحقق الشروط البنائية للعمل الأدبي (دادوة، 2000م، صفحة 145/2).

2– مفهوم الجمالية:

2–1– اصطلاحا: الجمالية هي نزعة مثالية تبحث في الخلفيات التشكيلية للإنتاج الأدبي والفني، تختزل جميع عناصر العمل في جماليته (علوش، 1985م، صفحة 62) وعادة ما يكون الجمال غريبا وذو طابع مذهل للأشياء (ريتشارد،، فبراير 1974م، صفحة 159)، وهو مرتبط بكل العصور والحضارات والأجيال، فكل عصر ينتج جمالية، وكل حضارة تقدم إبداعاتها الأدبية والفنية (علوش، 1985م، صفحة 62).

3– المكان:

3–1– المكان اصطلاحا: يرى أفلاطون أن المكان هو الخلاء المطلق (بدوي، 1984م، صفحة 169/1). أما حسن مجيد العبيدي فيعتبره المادة أو الحاوي أو المحل أو الموقع أو الأم المرضع وما فيه تظهر الأشياء والأجسام (العبيدي، 1987م، صفحة 27)، وقد ارتبط المكان في الماضي بالفلسفة ثم تعدد إلى ميادين مختلفة مثل: الاجتماع والرياضيات والفيزياء والأدب.

ثانيا الإطار الإجرائي:

1– تشكل المكان/ الزنزانة في قصيدة زنزانة العذاب 73:

يعد المكان مكونا أساسيا في الخطابين النثري والشعري، لأنه منطلق الأحداث وحاوي الشخصيات والزمن، ويختلف المكان الإبداعي عن المكان الطبيعي والحقيقي، فالأول: مزيج بين الخيال والواقع، والآخر: واقعي صرف.

ومفدي زكرياء كغيره من المبدعين اهتم بالمكان في هذه القصيدة التي تتأسس من خلاله، فهو بؤرة الأحداث ومنبع الأحاسيس، يكفيه أنه عنون القصيدة باسم مكان: (زنزانة العذاب 73) وهو مكان يشي منذ البداية بوحشيته وسوء إقامته.

تناول مفدي زكرياء في هذه القصيدة يومياته داخل زنزانته في سجن بربروس، وقد ركز في هذه اليوميات على زمن الليل الذي أضاف للمكان جمالية استطاعت أن تحوله من مكان كريه ولافظ إلى مكان جميل يأنس فيه قابعه، ولأن مفدي زكرياء قد عاش آلامه في الزنزانة فقد أهمل تصوير السجن بكل معالمه، وسلط قلمه عليها لاختزال تجربته الفردانية للمتلقي، تجربة دامت ليالي من المرار والألم والتعذيب داخل مكان مغلق وخانق يؤثر بكيفية سلبية على معنويات النزيل ومقدرته على المواجهة فيتحول إلى فرد عاجز محبط داخل مناخ تراجيدي يقل نظيره في الفضاءات الموصدة الأخرى (بحراوي، 1990م، صفحة 60).

والمتأمل في العنوان يدرك للوهلة الأولى من خلال لفظتي زنزانة والعذاب أنه بؤرة للألم والعتامة وفقدان اليقين وتحديد الإقامة (بحراوي، 1990م، الصفحات 60 – 68)، لكن سرعان ما يتلاشى هذا المعنى التداولي وينزاح إلى معاني مختلفة خلقتها وحدة الشاعر داخل الزنزانة وانفراده مع عالمه الجميل ليلا والقبيح صباحا، فكيف كانت تشكل هذا المكان داخل القصيدة؟

لقد استطاع الشاعر أن يجعل من هذه الزنزانة الضيقة والانفرادية مكانا واسعا ومتنوعا أعيد تشكله من خلال التلاحم الذي كان بين مفدي وهذا الأخير، تلاحم أدى في كثير من اللحظات إلى الحلول والتماهي، فتحولت هذه الزنزانة من مكان طبوغرافي يضم باب الغرفة ومفاتيحها وحوضها وسجانها وجلادها وخازن النار إلى:

أ– **مكان ثالث**: وهو المكان الجامع بين المكان الحاضر الذي عادة ما يكون كريها، ومكان الذكرى والذي يتمتع بالجمال، فالزنزانة قبيحة بعذابها وبردها وجلادها. لكنها تصبح جميلة عند زيارة ذكرى المحبوبة ليلا وغيرها.

ب–مكان نفسي: وهو الذي يتشكل من خلال الحالة النفسية للمبدع، وقد استطاع مفدي زكرياء أن يشكل لنا هذا المكان من خلال حالاته النفسية التي كان يعيشها والتي تراوحت بين الحلم واليقظة والألم والأمل والعذاب والراحة...

ت–مكان حلولي: وهو المكان الذي يحل فيه جسد أو روح مثل زنزانة العذاب 73 أين كانت روح الشاعر تسبح فيها وتخترق الجدران، والكون.

ث–مكان شامل: وهو المكان الذي يضم الأزمنة الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل)، ومفدي زكرياء تعانق مع كل هذه الأزمنة داخل هذا المكان فيتذكر سلوى وأيامها الحلوة، ويعيش لحظة الألم من الجلاد، ولحظة فراق الحبيبة وصفوف الجيش، ويتمنى بل يوقن أن أهله في المستقبل سيفخرون بشجاعته وتضحيته (النابلسي، 1994م، صفحة 15 وما بعدها).

ولمعرفه تشكل هذا المكان سنعتمد على:

1– صيغ بناء المكان / الزنزانة

2– وظائف المكان / الزنزانة

أولا: صيغ بناء المكان / الزنزانة:

يقوم المكان في قصيدة زنزانة العذاب 73 على ثنائية التقاطبية التي قسمت لنا المكان إلى ثنائية المغلق والمفتوح والتي أدت إلى تشكل ثنائيات ضدية أخرى (الثبات / التحرك)، (الظلام / النور)، (القبح / الجمال)، (الوحشة / الاستئناس)، (الهدوء / التوتر)، (الاختيار / الجبر).

1– ثنائية الثبات / التحرك: يعد المكان الطبوغرافي مكانا ثابتا وجامدا يقدمه المبدع للقارئ فيتأمل تضاريسه وأشكاله وأنواعه فإما يستمتع بها أو يشمئز منها. والشاعر قدم لنا هذا المكان كما سبق ذكره من خلال أبوابه الضخمة والموصدة وقرع أصوات المفاتيح والحديد وكذا حوض التعذيب والسجان والجلاد اللذان جاءا باهتي الصورة لتركيز مفدي على العذاب وآلامه التي اعتادها أكثر من صورة ممارساه، وبهذا تكون القصيدة قد قدمت لنا بعض الجزئيات الملموسة التي أضفت على المكان وحشة وجمودا وثباتا وهي حالة متواترة كل يوم، لكنه ثبات ظاهري فالزنزانة كانت تمتلئ حركة كل صباح بالتعذيب وحركة الأشخاص، وبتوهج وجدان الشاعر ليلا عندما يخيم الليل فيغريه لاستحضار الأيام الجميلة مع سلوى وبهذا يكون هذا

المكان قد مارس انزياحا دلاليا فانتقل من طبيعته العاتمة والثابتة إلى مصدر حياة وحركة وحيوية من خلال تيمة اللوم والعتاب على أهله والحب والآلام، والعذاب الذي يحدث حركية صوتية وجسمانية داخل الزنزانة.

2- ثنائية الظلام / النور: يجمع المكان / الزنزانة في القصيدة بين الظلام الدامس الذي زاد من عتمته تعذيب السجان وخازن النار والجلاد ونور ذكرى سلوى وحركة المجاهدين في الجبال، والأهم نور شجاعته وصبره على التعذيب وعدم خيانة الأخوة المجاهدين، كلها أشياء كانت تنفذ إلى قلبه فيزداد صبرا وثباتا ويقينا بالنصر ودحر المستعمر ويمتلئ المكان نورا بسعادته ورضاه، يقول الشاعر: (مفدي، 2007م، الصفحات 25 – 29)

أم السِّياطُ، بها الجلادَ يلْهبني ... أم خازنَ النَّارِ، يكْوِيني فأصطفقَ
يا سجن، ما أنت؟ لا أخشاك، تعرفني ... من يحذق البحر، لا يحذق به الغرق
إني بلوتك في ضيق، وفي سعة ... وذقت كأسك، لا حقد ولا حنق
أنام ملء عيوني، غبطة ورضى ... على صياصيك، لا هم ولا قلق
ورب نجوى، كدنيا الحب، دافئة ... قد نام عنها رقيبي، ليس يسترق
عادت بها الروح، من سلوى معطرة ... فالسجن، من ذكر سلوى كله عبق
(..... .....)
جيش إلى النصر تحدوه ملائكة ... مسومون، بموج الموت يندفق.

3- ثنائية القبح / الجمال: يجمع المكان / الزنزانة في تشكله داخل القصيدة بين القبح المتمثل في ظلمة الغرفة وضيقها وتعذيب الجلاد وخازن النار وبين الجمال الذي يملأ المكان ليلا بذكرى سلوى تلك الفتاة السمراء التي أحبها مفدي، والتي كان يستحضرها في ظلمة الليل فتزيد الزنزانة جمالا وراحة، ويسترسل شاعرنا في تذكر تلك الأيام الجميلة مع محبوبته في شاطئ البحر، ذكرى استطاع الشاعر أن يقاسمها مع القارئ فحملت روحه إلى ذلك العالم الجميل فأحب سلوى وأحب ذلك الحب الجميل وسافر إلى ذلك الزمن فشارك المحب فرحة اللقاء وتوهج الفؤاد وتمنى أن لا تنقطع حلقة سلوى في القصيدة، لأنها حلقة مليئة بالنور والبهجة والجمال والصفاء والنقاء خاصة في حلول ذات الشاعر مع هذه المحبوبة فنسينا قبح الزنزانة وتفاعلنا

مع فرحة اللقاء الذي كان صعبا وتألمنا مع عذاب الفراق الذي كان يرتبط بحركة الشمس وجمرة الحرمان التي كانت ترتبط بالرقيب، وحيوية الزمن الذي كان يتسارع في نبضاته فلا يحدث في نفس مفدي شبعا من اللقاء، لأنه مثل الرؤى سرعان ما يتلاشى، يقول الشاعر (مفدي، 2007م، الصفحات 25 – 26):

ورب نجوى، كدنيا الحب، دافئة قد نام عنها رقيبي، ليس يسترق
عادت بها الروح، من سلوى معطرة فالسجن، من ذكر سلوى كله عبق
هل تذكرين، إذا ما الحظ حالفنا إليك أهتف يا سلوى، فنتفق؟
أم تذكرين، ولحن الموج يطربنا إذ نفرش الرمل في الشاطئ ونعتنق؟
نسابق الشمس، نغزوها بزورقنا فيسخر الموج منا كيف نلتحق
وتغرب الشمس، تطوي في ملاءتها سرين، أشفق أن يفشيهما الشفق
وكم سهرنا، وعين النجم تحرسنا إذ نلتقي كالرؤى، حينا، ونفترق

4– ثنائية الوحشة / الاستئناس: يجمع المكان / الزنزانة في تشكله داخل القصيدة بين وحشة الشاعر بسبب جفاء الأهل والوحدة التي يعانيها بين جدران الزنزانة، وحدة ضاعفت من شدة العذاب والعقاب، وأعطت للسجن معناه الحقيقي من خلال الإقامة الانفرادية (بحراوي، 1990م، صفحة 67) التي تزيد وتضاعف من معاناة النزيل، وتزداد وحشة الشاعر في القصيدة بسبب شوقه لمحبوبته سلوى وأيام وصلها، وبين الاستئناس الذي تجلى في استحضار ذكراها وحبه لأهله وتضحيته من أجل الوطن الذي سيتحول لا محالة إلى فخر لديهم رغم الجفاء، فالشاعر موقن بأن التاريخ سيخلده شهيدا كان أم حيا، لذلك كان شديد الاستئناس بقضية الشهادة في سبيل الوطن وبالذكر الطيب الذي سيتركه وبقضية النصر الحتمي الذي سيأتي مهما طال الأمد، وبطش المستعمر، إنها روح تحيا في الزنزانة على الذكرى، وتعيش الأمل المشرق للثورة والثوار حتى تحولت هذه المشاعر إلى قناعة راسخة في ذهنه كعقيدة يتشبث بها، فتبعث في قلبه الاطمئنان والاستئناس في ظلمة الزنزانة، وتزيده قوة وشجاعة فلا عز إلا بالإقدام والتضحية الخالصة لوجه الله، ثم للثورة المجيدة ويزيد من استئناس الشاعر داخل هذا المكان الموحش والمظلم أشعاره التي كان يهدهدها ويستحضرها مع ظلمة الليل أين كانت روحه تنفلت من السجان وتبحر في الملكوت فيطرب ويهدأ ويأنس وينسى آلالام السجن والسجان. يقول الشاعر: (مفدي، 2007م، صفحة 26)

طوع الكرى، وأناشيدي تهدهدني وظلمة الليل، تغريني فأنطلق
والروح تهزأ بالسجان ساخرة هيهات يدركها، أيان تنزلق

ويقول: (مفدي، 2007م، الصفحات 30 - 31)

لا أبتغي العز إلا في مغامرة إن السماوات، للمقدام تنفلق
روحي! وهبتك يا روحي، فدا وطني زلفى إلى الله، لا من ولا ملق
وإن جفاني ذوو القربى، فلا عجب إن النبوة في أوطانها خرق
لا زلت أرعى لهم عهدا وإن بقيت مثل المدى من جفاهم في الحشى حرق
سيذكرون، إذا اليل الرهيب سجى وجلجل الخطب، وأني في الدجى فلق
حسبي، وحسب أناسي، أن غدوت لهم عودا، يعطرهم، ذكري وأحترق!!...

5– ثنائية الانغلاق / الانفتاح: يجمع المكان / الزنزانة في تشكله داخل القصيدة بين الانغلاق الذي هو في الأصل بنية السجن واستلاب الحرية (التواتي،، 2008م، صفحة 106) من خلال باب الزنزانة المتين وضيقها مع خازن النار وجلاد لا يعرفان الرحمة، وبين الانفتاح من خلال روح الشاعر التي كانت تسبح في الملكوت كلما خيم الليل، وذكرى سلوى التي كانت هي الأخرى تخرجه من ذلك المكان المظلم والكئيب إلى أماكن الوصل كالبحر وغيره، ولم يتوقف انفتاح الشاعر على العالم الخارجي للزنزانة على ذكرى سلوى بل تعداه إلى استحضار صورة الثوار وعلاقته بأهله ... وبهذا يكون مفدي زكرياء قد جعل لنا مشاعره اتجاه الوطن والمحبوبة والأهل جسرا يجمع بين داخل الزنزانة وخارجها. فالقارئ للقصيدة يتماهى مع هذه الروح الشفافة والانسيابية ويتعايش مع كل لحظة حب أو ألم أو عتاب كما لو كان يحياها رغم اختلاف الزمان (فترة الاستعمار) والمكان (سجن بربروس).

6– ثنائية الجبر / الاختيار: يجمع المكان / الزنزانة في تشكله داخل القصيدة بين الجبر والاختيار، فالشاعر استطاع أن يحوله من مكان جبري إلى مكان اختياري أين مارس اختيار قصائده والذكريات وغيرهما، بالإضافة إلى اختياره الصمت وعدم البوح بالأسرار حتى لو مزق جسده، كما اختار التضحية من أجل وطنه. وهي اختيارات نابعة من قناعاته وحسه الثوري والوطني، وبهذا تحول هذا المكان الجبري إلى مكان اختياري يفرض على الجلاد وخازن النار اختياراته كالصمت وتحمل الألم.

يقول الشاعر (مفدي، 2007م، صفحة 25):

سري عظيم، فلا التعذيب يسمح لي نطقا، ورب ضعاف دون ذا نطقوا

7– ثنائية الهدوء / التوتر: يجمع المكان / الزنزانة في القصيدة بين الهدوء الذي تزامن مع الليل أين ينام الجلاد وخازن النار وغيرهما من زبانية العذاب، وبين توتر الشاعر النفسي في لحظات الذكرى (سلوى، الأهل، الوطن، الثوار)

هكذا هي قصيدة زنزانة العذاب 73 إبداع شعري اهتم فيه الشاعر بالمكان / الزنزانة حتى يشارك القارئ قساوة التجربة، مركزا في تشكله لهذا المكان على الجانب المعنوي (الأحاسيس، الأحلام، الذكريات، العتاب، ...) أكثر من الجانب المادي الطبوغرافي، لذلك تحول هذا المكان المغلق والثابت والموحش والقبيح، إلى مكان مفتوح حيوي مؤنس جميل، الشيء الذي جعل القارئ يأنس بليله بل وينتظره مثلما انتظره مفدي زكرياء حتى يعيش جمال الذكرى التي تناسلت إلى ما لا نهاية، وحلاوة سكون الليل الذي كان مع الذكرى يحجبان سحرهما عن الصباح والجلاد وخازن النار، بل وحتى القارئ – في بعض اللحظات – الذي أصبح يفتش فيها علّه يظفر بموعد معها ينقله من قبح المكان إلى جمال وجاذبية حضورها، أين يتناسى مرارة التجربة ويندمج مع قصة الحب الجميلة وقناعة النصر، وبهذا يكون هذا المكان منفتحا شعوريا ومنغلقا هندسيا.

ثانيا: وظائف المكان / الزنزانة:

لا يكتمل شكل المكان في النص الشعري أو السردي إلا من خلال الوظيفة التي أسندت إليه، ومن وظائف المكان / الزنزانة في قصيدة زنزانة العذاب 73 ما يأتي:

1– الوظيفة الانزياحية: حيث انزاح المكان من دلالة الكره النفور والوحشة إلى دلالة الألفة والاستئناس والانفتاح والتماهي مع كل شيء فيه.

2– الوظيفة المعرفية: وتتمثل هذه الوظيفة في تقديم جملة من المعطيات عن هذا المكان للتعريف به، فظهر من خلال الأبيات ضيقا له باب صلب مغلق بحلقات، وفيه حوض للتعذيب، كما يقدم لنا الشاعر أهم شخصية قد لا يعرفها فئة من القراء وهما: خازن النار والجلاد، اللذان يمثلان السلطة في السجن السياسي، أين تكون علاقتهما مباشرة بالسجين (الصمد، 1995م، صفحة 222).

3– المساهمة في إبراز مشاعر المبدع: أدى المكان وظيفة دفعت الشاعر إلى التعبير عن مشاعره من خلال المكان المظلم الذي استفز قلمه فكتب عنه ووصفه، ومن خلال الوحشة التي كان يحياها ففجرت في نفسه كمية من المشاعر، لعل أبرزها حب

سلوى، وبسالة الثوار وحب الوطن، وأيضا حجم كرهه وازدرائه للمستعمر الذي كان ينعت أفراد جيشه بأبشع الصفات، يقول الشاعر (مفدي، 2007م، صفحة 30):

جند، يباع ويشرى مثل ماشية يلقي السلاح إذا ما نابه الفرق
جيش من المرد غلمان مخنثة أحلاس يدفعها –للزلة– الشبق
فلا ضمير عن الفحشاء يردعهم إن أيسروا فسقوا، أو أعسروا سرقوا

4– إعادة تشكيل الشخصية:

أحدث المكان / الزنزانة تغييرات في شخصية مفدي زكرياء فالسجن عادة ما يعيد صياغة الإنسان من جديد (النابلسي، 1994م، صفحة 317)، لقد أصبح أكثر شجاعة وقوة لا يهتم بالتعذيب ولا بالسجان لأنه وصل إلى النهاية القصوى للتجربة (غاستون، 1984م، صفحة 198).

جمالية المكان / الزنزانة في قصيدة زنزانة العذاب 73:

يعد عنصر المكان من أهم المظاهر الجمالية الظاهرتية (النابلسي، 1994م، صفحة 10) في الأعمال الإبداعية خاصة المعاصرة يتمتع بمرونة تجعله طيعا للدراسات الشكلية والجمالية، لذلك تعددت دراسة هذا العنصر الفني بين البنائية والفنية ولأن قصيدة زنزانة العذاب 73 قد انبثقت من مكان عدواني–مثلما رأينا– فقد قادنا الفضول إلى التوغل في جمالية هذا الأخير خاصة إذا كنا نعلم أن السجن مكان يعيد صياغة نفسه انطلاقا من تجربة كل سجين، فما هي مظاهر القيم الجمالية في هذه القصيدة؟ وهل تحول هذا المكان –من خلال تجربة مفدي زكرياء– من مكان قبيح إلى مكان يحمل أبعادا جمالية تؤنس الشاعر والمتلقي أيضا؟

ولما كانت معظم الدراسات تتناول جمالية المكان من خلال (الديكورات، والأزمنة، والمأكل والمشرب، و...) فقد رأينا أن نتناول قيمة جمالية بعيدة عن المرئيات والملموسات حتى نكشف جمالية الصورة الفنية للمكان الخاضعة لرؤية فنية بعيدا عن المقاييس المنطقية (مرشد، 2009م، صفحة 09) هذه القيمة الجمالية هي الأنسنة وقد اخترناها لتجليها بقوة في هذه القصيدة التي تقوم على تجربة إنسانية قاسية ساهمت بشكل كبير في تشكل هذا المكان وجعلت الشاعر بسبب وحدته يتماهى مع تلك الزنزانة ويخاطبها كما لو أنها شخص أمامه يؤنسه تارة ويقسو عليه تارة أخرى.

مفهوم الأنسنة:

1– اصطلاحا: والأنسنة في الاصطلاح تقابل التشخيص "وهي طريقة سردية تقوم على نعت موضوع شيء / وحدة مجردة / كائن غير إنساني لنعوت تسمح باعتباره

فاعلا يمتلك برنامجا سرديا" (علوش، 1985م، صفحة 126)، وهي رؤية فنية عالية لا تقوم على رسم منطقي أو معتاد و«لا تشابه الأحداث الواقعية يضفي فيها الفنان صفات إنسانية محددة على الأمكنة والحيوانات والطيور والأشياء وظواهر الطبيعة حين يشكلها تشكيلا إنسانيا ويجعلها كأي إنسان يتحرك وتحس وتعبر وتتعامل وتقسو حسب الموقف الذي أُنسنت من أجله» (مرشد، 2009م، صفحة 09). والمبدع عندما يوظف تقنية الأنسنة لأي شيء غير إنساني فهو إما متعاطف أو متماه أو منعدم فيه (مرشد، 2009م، صفحة 09) وتتخذ الأنسنة عدة أشكال، منها:

أ– **أنسنة الحيوان**: ونقصد بها اضفاء صفات الإنسان على الحيوان، وقد عرفت هذه التقنية منذ القديم لدى الحضارات السالفة، ونجد آثارها في كتاب كليلة ودمنة (حميدة، د.ت، صفحة 47 وما بعدها)، وفي القرآن الكريم وغيرهما.

ب– **أنسنة النبات**: وهو إضفاء صفات الإنسان على النبات، وقد جاءت بشكل واسع في الأدب العربي، خاصة الشعر، ومن أمثلة ذلك قصيدة: التينة الحمقاء لإيليا أبي ماضي (أبو ماضي، 1980م، صفحة 46).

ج– **أنسنة الجماد**: ويقصد بها إضفاء صفات الإنسان للجماد، ومن أمثلة ذلك أشعار شعراء الجاهلية.

ح– **أنسنة المعنويات**: ويقصد بها إضفاء صفة الإنسان على الأشياء المعنوية مثل: المرض كقصيدة من الحمام إلى الحمام للمتنبي أين وصف الحمى الشديدة وقصيدة ذي الرمة في وصف الليل «الذي جعله حيران مترامي السواد كاللجة المظلمة كأن نجومه عيون فاقدة البصر» (يونس ديما، 2015، صفحة 80).

خ– **أنسنة المكان**: ويقصد بها إضفاء صفة الإنسان على المكان، مثل: نصوص عبد الرحمن منيف الروائية (رواية النهايات)، وغالب هلسا (رواية سلطانة)، وأحلام مستغانمي (رواية ذاكرة الجسد).

رابعا: تجليات أنسنة المكان وأشكالها في القصيدة:

أنسنة الزنزانة: عادة ما تتوحد ذات المسجون مع السجن خاصه الانفرادي، فتمنحه مع الوقت جزءا من صفاتها الإنسانية مثلما يمنحها جزء من صفاته، ولعل أبرز الصفات التي تحلت بها الزنزانة المتواجدة في سجن بربروس:

1– **الجمال**: يقصد بالجمال الحسن الكثير، وهو نوعان:

1–1– **جمال يتعلق بالإنسان في ذاته أو شخصيه أو فعله.**

1–2– **جمال يصل من الإنسان إلى غيره** (السروجي، 2012، صفحة 07).

ورغم أن السجن عامة مكان لافظ قبيح إلا أن مفدي استطاع أن يحوله إلى مكان جميل، وذلك بإضفاء صفات الجمال من خلال استحضار ذكرى محبوبته التي عبقت المكان، يقول (مفدي، 2007م، صفحة 26):

عادت بها الروح ومن سلوى معطره فالسجن من ذكر سلوى كله عبق

2– **القسوة**: وهي عكس اللين والرحمة والشفقة، وهي صفة قبيحة مكروهة «وممقوتة تكون آنية أو دائمة، تعتري المكان نتيجة تصرفه تصرفا غير إنساني وأخلاقي يتنافى مع مبادئه الإنسانية» (مرشد، 2009م، صفحة 44) والشاعر قد استعار هذه الصفة اللاأخلاقية من الإنسان إلى سجن بربروس تحديدا زنزانة رقم 73 عن طريق التشخيص والتصوير محولا هذه الزنزانة إلى ذات إنسانية تقسو بسياط الجلاد، وبسياخ خازن النار على جسد الشاعر متفننة في عذابه (بكيس، 2014م، صفحة 59)، يقول الشاعر (مفدي، 2007م، صفحة 25):

أم السياط، بها الجلاد يلهبني أم خازن النار، يكويني فأصطفق

وهي صفة كما تبدو دائمة ملائمة لطبيعة المكان (السجن الاستعماري)، وكلما أطال الشاعر المكوث كلما زاد السجن قسوة، فاقدا روحه الإنسانية، وزاد المعذب ألقه مع العذاب، فما عاد يؤثر على ذلك الجسد المنهك من الجراحات النازفة، والروح المتألمة لفراق المحبوب والأهل (عريوات، 2017م، صفحة 265).

3– **العجز**: هو الضعف مع قلة الحيلة، وهو سمة إنسانية سلبية تراود الإنسان ماديا فيعجز عن الحركة والوقوف، ومعنويا فيعجز عن اتخاذ القرارات وتحمل المسؤولية.

ولعل أبرز صفة أسندت للسجن وبعثت في نفس القارئ الشموخ والفخر بالشاعر مفدي زكرياء هي صفة العجز، فالسجن قد عجز عن جعل الشاعر ضعيفا أو خائنا للثورة والثوار، وعجز عن ثني عزيمته، فوقف متحديا السجن والسجان والجلاد وخازن النار بكل قوة غير مبال بآلامه ووحدته وسجنه (خليل، 2007م – 2008م، صفحة 84).

وقد استعمل عدة أساليب للتعبير عن تلك الفكرة مثل: أسلوب النفي في صورته الإيجابية الحاملة لدلالة التحدي والرفض (ولد أحمد، 2008م، صفحة 60) (لا التعذيب، لا أخشاك، لا الفيالق، ...)، وأسلوب التضاد الذي وضح مدى تحدي مفدي زكرياء لهذا السجن فجعله

عاجزا عن إنجاز مهمته، وعن إخماد ثورة الشاعر. ومن هذه التقاطبات الضدية تساوي الأشياء مع ضديتها، يقول الشاعر (مفدي، 2007م، صفحة 25):

سيان عندي، مفتوح ومنغلق يا سجن، بابك، أم شدت به الحلق

4- **المساعدة**: لقد استطاع هذا المكان أن يساعد مفدي زكرياء على اكتساب الصبر ومعرفة حقيقة أهله الذين جفوه.

خامسا: أشكال أنسنة المكان / الزنزانة:

اعتمد مفدي زكريا على صيغتين لأنسنة هذا المكان الموحش هما:

أ- **المخاطبة**: أي مخاطبته خطابا إنسانيا حيث جعل السجن إنسانا عاقلا يحاوره ويكلمه مستعملا أسلوب النداء يا سجن ثلاث مرات للفت انتباهه والتحدي ومن ثم توصيل رسالته بالإضافة إلى أسلوب التخاطب أين نجد الشاعر يخاطب هذا المكان بروح متعالية رغم هول العذاب، ومتحديا أساليب السجان، وكأن هذا السجن إنسان يسمع صرخاته ونجواه، يستأنس به تارة وينقم عليه تارة أخرى، وهي دلاله واضحة على تلون الشاعر مع هذه الظروف القاسية.

ب-**الإخبار**: حيث قدم الشاعر جملة من المعلومات مثل: شجاعة الثوار، ورغبته في الالتحاق بهم متى فتح باب السجن. فضلا عن الفرق بين الجندي الجزائري المسلم الذي كله صبر وشجاعة وعزيمة ورغبة في نيل الشهادة وتحرر الوطن، والجندي الفرنسي الكافر الجبان الذي لا يؤمن بالجهاد، ولعل وصفه بالمخنث دلالة جامعة لهوية هذا الجندي، وغيرها من المعلومات التي تراوحت بين السرية والعلن.

الخاتمة:

- ✓ يضم المكان في قصيدة زنزانة العذاب أربعة أشكال (مكان ثابت، نفسي، حلولي، شامل).
- ✓ يتشكل المكان في قصيدة زنزانة العذاب من ثنائيات ضديه متنوعة ساهمت في بناء القصيدة أهمها: (المتحرك / الثابت)، (الموحش / المؤنس)، (الهادئ / المتوتر).
- ✓ أدى اندماج ذات الشاعر مع المكان إلى انزياح المكان عن وظيفته البنائية إلى وظيفته الدلالية والتفسيرية.
- ✓ انغلاق المكان هندسيا وانفتاحه شعوريا.
- ✓ تعد الإنسانية من القيم الجمالية في الفن باعتبارها رؤية فنية مستقلة عن المنطق.

- ✓ حضور أنسنة المكان في القصيدة دليل على امتزاج ذات الشاعر مع كل ما كان يدور حوله في الزنزانة بسبب معايشته ذلك الواقع.
- ✓ اعتمد الشاعر في أنسنته المكان على صفات سلبية وإيجابية في الإنسان.
- ✓ اعتمد الشاعر على صيغتي التخاطب والإخبار في أشكال أنسنة السجن.
- ✓ نجح الشاعر كثيرا في إضفاء صفه الأنسنة على السجن، فجعله قاسيا ومساعدا وكاتما لأسراره.

قائمة المراجع:

الكتب:

1- إبراهيم أنيس – عبد الحليم منتصر – عطية الصوالحي – محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة – مصر، ط 4، 2004م.

2- أحمد مرشد، أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، دار التكوين، دمشق – سوريا، د.ط، 2009م.

3- أندريه ريتشارد، النقد الجمالي، تر: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت – لبنان، ط 1، فبراير 1974م.

4- إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، د.ط، 1980م.

5- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط 1، 1979م.

6- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، ط 1، 1990م.

7- حسن مجيد العبيدي، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، مراجعة وتقديم: عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، بغداد – العراق، ط 1، 1987م.

8- رضوى عاشور، أدب السجون في العالم العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 2014م.

9- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة – عرض وتقديم وترجمة–، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط 1، 1405هـ – 1985م.

10-شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط 1، 1994م.

11-عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط 1، 1984م.

12-عبد الرزاق حميدة، قصص الحيوان في الأدب العربي، مكتبة أنجلو مصرية، د.ط، د.ت.

13-غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط 2، 1984م.

14-محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 2، 1419هـ - 1999م.

15-مسعود خليل، ديوان اللهب المقدس لمفدي زكرياء – دراسة سيميائية، 2007 – 2008، مذكرة ماجستير، جامعة محمد خيضر – بسكرة، الجزائر.

16–مصطفى التواتي، دراسة في روايات نجيب محفوظ الذهنية – اللص والكلاب، الطريق، الشحاذ – ، دار الفارابي للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط 3، 2008م.
17–مفدي زكرياء، اللهب المقدس، موفم للنشر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د.ط، 2007م.
18–نبيل دادوة وفيصل الأحمر، الموسوعة الأدبية، دار المعرفة، الجزائر، د.ط، 2009م.
19–نوارة ولد أحمد، شعرية القصيدة الثورية في اللهب المقدس، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط.
20–واضح الصمد، السجون وأثرها في الآدب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط 1، 1995م.

مقال في مجلة:

1- جميل علي السروجي، مـفهوم الجمال في الفكر الإسلامي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، ع 20، 2012م.
2- عبد الكريم يعقوب وديما يونس، أنسنة الليل في شعر ذي الرمة، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة تشرين – سوريا، ع 21، السنة 06، 2015م.
3- وسيلة بكيس، تجليات الجسد المعذب في الشعر الثوري الجزائري، مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل للبحث، طرابلس – لبنان، ع 4، 2014م.
4- يمينة فلاق عريوات، أسلوبية التضاد في شعر مفدي زكرياء – ديوان اللهب المقدس أنموذجا، مجلة اللغة الوظيفية، جامعة الشلف، ع 06، 2017م.